

الباب الثاني

علمه باللغة والأدب وغيرهما

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعراً واسع المعرفة باللغة ولكنهم لا يعرفونه إماماً من أئمة اللغة في القرن الرابع، كما يتبين فيما يلي:

قدّمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبت رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرته من الوهن في بعض أخبارها لم تبين لكم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب. وقد بينت آنفاً أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وهو في سن الثامنة عشرة.

وما روي لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قول الثعالبي: إن أباه رحل به إلى الشام فلم يزل يردده في مكاتها ... الخ^(١)؛ وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضاً.

وقدّمت كذلك قول الخطيب في تاريخ بغداد: «وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس (أي التاريخ)».

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريها وشواهدا، ولقن عن أهل البادية منها، ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا. وقد بلغ في هذا أن عُذ في عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه.

وبرهان هذه الدعوى على هذا النسق:

١ - رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه:

قال ابن الأنباري: «ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي فقال له أبو علي: كم جاء من الجمع على وزن فعلي فقال حَجَلَى وظَرْبَى جمع حَجَل وظَرْبان. قال أبو علي: فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثاً فلم أجده. وقال في حقه: ما رأيت رجلاً في معناه مثله». وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جنى في مقدمة شرحه الديوان وقال: «ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه. لأن أبا علي - على جلاله قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله - لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده».

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه عُرف بسعة علمه باللغة. ثم شهادته له دليل آخر.

ولما وقع الجدل بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم ونصر أبا الطيب

اللغوي على ابن خالويه^(١). فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على الاعتداد بعلمه ورأيه في اللغة.

ولما دخل على الوزير المهلبى في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت:
سقى الله أمواها عرفت مكانها جُراماً وملكوها وبذر فالغمر
فقال أبو الطيب: هو جُراباً، وهذه أمكنة قتلتها علماً وإنما الخطأ وقع من النقلة^(٢).

وقد ادّعى الحاتمي أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر بل ناظره في اللغة أيضاً، وادّعى أن أبا الطيب قال له: اللغة مسلمة لك. فقال: وكيف تسلمها وأنت أبو عُذرتها وأولى الناس بها، وأعرفها باشتقاقها والكلام على أفانينها، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك^(٣).

وفي هذا برهان على اشتهار أبي الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمي تهكماً وسخرية أو كانت قصته كذبا.

(١) انظر ص ٩٦.

(٢) انظر ص ١٥٧.

(٣) معجم الأدباء لياقوت: الحاتمي، والصبح ص ٢٩.

ولما نزل عند ابن العميد في أَرْجان قرأ عليه كتابًا جمعه في اللغة. قال في الإيضاح: «وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه. ويتعجب من حفظه وغازاة علمه»^(١).

وقال الخالديان: «كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية، جيد النقد...، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها ولا يُسأل عن شيء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر» وقال صاحب الإيضاح: «وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر»^(٢).

وقال ابن جنى: «ولقد كان من الحد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أسدٍ وتيرة وأحسن سيرة».

٢- وقد أثر لنا بعض كلامه في اللغة. وذلك قسمان:

مجادلته ابن جنى في مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه. وحسبك بمن يناظر في اللغة والصرف ابن جنى إمام أهل العربية في التصريف، ثم يشهد له ابن جنى الشهادة السالفة. وعندنا من هذه المجادلات أمثلة.

والثاني ما أملاه أبو الطيب نفسه شرحًا لبعض شعره. وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح. وفيه من التبيين وإيراد

(١) الخزائن ج ١ ص ٣٨٦.

(٢) الصبح ص ٨٠ والخزائن ص ٣٨٩.

الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة.

وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبياناً للقارئ:

جاء في شرح البيت:

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتناد

«قال أبي الطيب يقال أحاد، وثناء، وثلاث، ورباع إلى عشار في المؤنث والمذكر غير مصروف. والفرء يصرفها إذا جعلها نكرات. وكل ما لا ينصرف من الأسماء يُصرف في الشر لأن الصرف الأصل. وهذا الذي يُنسب إليه في العدد فيقال ثنائي، وثلاثي، ورباعي، وخماسي إلى عشاري. قال أبو النجم:

فوق الخماسي قليلاً بفضلته أدرك عقلاً والرهان عمله

وأنشد:

ضربت خماس ضربة عبشي أدار سداس ألا يستقيما

وللكميت:

فلم يستر يشوك حتى رميت فوق الرجال خصالاً عشارا

وللهذلي:

يصيد أحدان الرجال وإن يجد ثناءهم يفرج بهم ثم يزدر

وأنشدني:

أَحْمَدُ اللَّهِ ذَلِكَ مِنْ لِقَاءِ أَحَادِ أَحَادٍ فِي شَهْرِ حَلَالٍ

وحكى ابن السكيت عن أبي عمرو: ادخلوا مَوْحِدَ مَوْحِدٍ، وَمَثْنَى مَثْنَى، ومثلث مثلث، ومربع مربع، وكذلك إلى العشرة. وكذلك ادخلوا أَحَادِ أَحَادٍ، وَثَنَاءِ ثَنَاءٍ، وَثَلَاثِ ثَلَاثٍ، ورباع رباع إلى العشرة. قال علي (يعني ابن حمزة راوية أبي الطيب): وقال أبو الطيب: وكان أبو حاتم تبع أبا عبيدة في قوله في كتاب المذكر والمؤنث: «ورباع رباع. ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك». ثم رجع عنه فقال في كتاب الإبل: «ورباع إلى العشرة».

قال أبو الطيب وأما ليلتنا فتصغير تعظيم كقول ليلى:

وكل أناس سوف تدخل بينهم ذُويهِية تصفّر منها الأنامل

الرواية التي أعرفها خويخية. وكذا أنشده المبرد واليزيدي وثعلب. وأنشدني المتنبي ذُويهِية (هذا من قول علي بن حمزة) وقال الأنصاري: أنا جُذِيلُهَا المحكَّكُ، وعُذِيْقُهَا المرجَّب. قال: وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم: كليب وعمير. قال وما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أَنَا هُوَيٌّ ومعي سلاحي فصغره.

والتنادي أراد التنادي بالرحيل». أه.

وفي شرح البيت:

إذا عرضت حاجٌ إليه فنفسه إلى نفسه فيها شفيع مشفع

قال أبو الطيب: يقال حاجة وحاج وحاجات وجَوْج وعلى غير القياس حوائج. وتقول العرب في نفس منه حوجاء أي حاجة. وأنشدك:

ألا ليت شوقاً بالكُناسة لم يكن
إيها لحاج المسلمين طريق
وقال آخر:

لعمري لقد لبثتني عن صحابي
وعن حَوْجٍ قضاؤها من شفائيا
وأنشد لامرئ القيس:

* لنقضني حاجات الفؤاد المعذب *

وأنشد الفراء:

نهار المرء أمثل حين يقضي
حوائجَه من الليل الطويل

وزعم الأصمعي أن حوائج مولدة. قال أبو الطيب: وهي كثيرة على
ألسن العرب خرجت عن القياس. قال البصري (على بن حمزة) وأنشدني
أبو الطيب للشماخ:

تَقْطَعُ يَتَنَّا الحاجات إلا
حوائجَ يعتسفن مع الجري

قال حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح، وقد ذكر ذلك ابن
دريد فقال: حاجة وحائجة وحوجاء». أه.

ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه. وإنني لراج أن ييسر الله
لي عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح إلا أمالي الشاعر

والمقدمات التاريخية التي تُصدّر بها بعض القصائد. وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك ^(١).

٣- وقد قرئ علي أبي الطيب في مصر كتاب المقصود والممدود لأبي العباس ابن ولاد، فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات وقد عثرت على رسالة اسمها «التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي» وأحسبها لعلي بن حمزة البصري جاء في مقدمتها: «قال أبو القاسم: وكان هذا الكتاب أعني المقصور والممدود، قرئ على أبي الطيب بمصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة. فردّ فيه على ابن ولاد أغلاطاً وبينها واستشهد عند بعضها. فجمع ردّ أبي الطيب وشواهده بعضُ المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج أبي الطيب من مصر. وأضاف إليها أشياء من عنده غلط فيها هو، وأشياء أصاب فيها. وكان هذا المدعي سمع هذا الكتاب وغيره من ابن ولاد، وعنه سمعته. وهذا المدعي يعرف بأبي الحسين المهلبى. فإذا مرّ من تلك الأغلاط والشواهد شيء في كتابنا عزّوناه إلى مستحقه، وبيناه إن شاء الله».

فأما المهلبى هذا فهو أبو الحسن علي بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى بمصر سنة ٣٨٥. وفي أثناء ترجمته يقول ياقوت: «وذكر علي بن حمزة البصري النحوي في كتاب الرد على ابن ولاد في المقصور

(١) قد يسر له هذا من بعد فأخرجت الديوان مُصححاً على أقدم النسخ وأصحها وعليه ما أثر من شرح عن أبي الطيب. ونشرته لجنة التأليف في العيد الألفي للشاعر.

والمدود، أن أبا (أبي) ^(١) الحسن المهلبى كان لقيطاً وكان له اختصاص بالمتلقب بالمعز والعزیز المستولين على الديار المصرية، ومن جلسائهما الخواص، وأدرك دولة كافور الإخشيدي، وله مع أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة».

وعلي بن حمزة هذا راوية أبي الطيب. وكتابه في الرد علي ابن ولاد قد تضمن رد أبي الطيب. والذي رواه ياقوت عن علي بن حمزة في الطعن علي المهلبى يوافق مطاعن هذه الرسالة التي نقلت منها النبذ الآتية. فهذه الرسالة تشبه أن تكون لعلي بن حمزة نفسه. ولعلي بن حمزة سبعة كتب أخرى في الرد على اللغوين، يقول ياقوت: رأيتها كلها في مصر ^(٢).

والقصة التي وقعت بين المهلبى هذا وأبي الطيب في مصر هي كما رويت عن المهلبى نفسه:

«وقع بيني وبين المتنبي في قول العدواني:

يا عمرو إلا تدغ شتمى ومنقصتي أضرنك حتى تقول الهامة اسقوني

وذلك أن المتنبي قال: إن الناس يغلطون في هذا البيت. والصواب اسقوني من شقات رأسه بالمشقة، وهو المُشط. قال المهلبى: فقلت له: أخطأت في وجوه؛ أحدها أنه لم يُرو كذلك، والآخر أنه يقال شقات

(١) يؤخذ من الكلام الآتي عن المهلبى، أن الذي نبز بأنه لقيط أبوه. فلهذا زدت كلمة أبي في رواية ياقوت.

(٢) معجم الأدباء ج ٥، ص ٢٠٣، ط بيروت.

بالهمزة. وأيضاً فإني أظنك لا تعرف الخبر فيه وما كانت العرب تقول في الهامة إنها إذا لم يُثار بصاحبها لا تزال تقول اسقوني فإذا ثأروا به سكن»^(١).

هذه رواية المهلبى وليس يعنينا أن نناقشها هنا.

وقد قرأتُ كتاب التنبّهات على مقصور ابن ولاد الذي ذكرته آنفاً وهو كتاب صغير، فجمعت ما رواه المؤلف عن أبي الطيب في الرد على ابن ولاد وأثبتته هنا:

«وقال ابن ولاد في باب الشين: وذكر عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر أنهما قالَا الشَّدُو لون المسك قال الشاعر:

إن لك الفضلَ على ضحيتي والمسك قد يستصحب الرامكا
حتى يعود الشَّدو من لونه أسود مَضنوناً به حالكا

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال هو الشَّدو. وقد أصاب المتنبي وغلط ابن ولاد في فتحه.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الطاء): والطَّرْقَى في النسب من قولهم الطَّرْقَى والقُعْدَى، فالطَّرْقَى أبعدهما والقُعْدَى أدناهما نسباً.

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا، فقال: الصواب الطرفي بالفاء. وقال ابن الأعرابي: يقال فلان أقعد من فلان أي أقل آباء، وأطرف من فلان أي

(١) معجم الأدباء: علي بن أحمد المهلبى.

أكثر آباء. وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد. وقال الأصمعي: يقال فلان بين الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجد الأكبر. وهو عندهم مدح كما قال الشاعر:

* طرفون لا يرثون سهم القُعد (١) *

وهذا الذي حكاه المتنبى مشهور معروف من قول ابن الأعرابي والأصمعي (وهو) الصحيح. وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المهلبى) وكذب في ادعائه وهو من رد المتنبى.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الغين) غضبى مائة من الإبل معروفة كقولك هُنيدة. وأنشد:

ومستخلف من بعد غضبى صريمة فأحربه لطول فقر وأحربا

وهذا ما رواه المتنبى فادعاه ابن المنبوز (يريد المهلبى أيضاً) فقال: الذي رواه أبو العباس (ابن ولاد) غضبى بالنون. وهو خطأ إنما هو غضبى بالباء، وهذا صحيح. اهـ.

ذلكم أبو الطيب في علمه باللغة وشواهدنا ونحوها وصرفها. ومن أجل هذا ترجم له ابن الأنباري في كتابه «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» الذي ترجم فيه لرجال الأدب واللغة والنحو. ولم يذكر غيره من الشعراء إلا أبا نواس وأبا تمام وابن المعتز وابن الجهم والمعري وأبا إسحق الغزي.

(١) هو لأبي وجزة. صدره: * أمرون (بكسر الميم) ولادون كل سميع *.

علمه بغير اللغة والأدب

وأما معرفته بما عدا اللغة والأدب فظننا بأمثاله من رجال عصره ونظرنا في شعره - يدلّان على أنه قد سمع وقرأ فحصل كثيراً من المعارف الشائعة في القرن الرابع.

نجدّه يمدح محمد بن زريق الطرسوسي فيذكر أمثلة متتالية من القصص الدينية:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيهِ	لما أتى الظلماتِ حِزْنَ شُموسا
أو كان صادفَ رأسَ عازرَ سيفهِ	في يومِ معركةٍ لأعياءِ عيسى
أو كان لُجَّ البحرِ مثلَ يمينهِ	ما انشَقَّ حتى خاض فيه موسى
أو كان للنيرانِ ضوءُ جبينهِ	عُبدتْ فكان العالمونَ مجوسا

ويقول:

وكم لظلام الليل عندك من يد
تخبّر أن المانوية تكذب

ويقول في هجاء كافور:

ألا فتى يورد الهنديّ هامته	كيما تزولُ شكوكُ الناسِ والتُّهم
فإنه حجة يؤذى القلوبَ بها	مَن دينه الدهر والتعطيل والقِدَم

يشير إلى آراء الدهريين، والمعتلة، والقائلين بقدم العالم.

ويقول في مدح دليّر:

فتمليك دليّر وتعظيم قدره	شهيدٌ بوحدانية الله والعدل
--------------------------	----------------------------

يشير إلى قول المعتزلة في التوحيد والعدل وفعل الصالح والأصلح.

فهذا كله دليل على اطلاع الرجل على المذاهب الدينية والقصص. وقد نظم قصيدة في مصر حينما اصطالح كافور وأنوجور بن الأخشيد. فلما أراد أن يبين عواقب الشقاق ساق أمثلة من تاريخ الجاهلية والإسلام:

وإذا كان في الأنايب خُلف	وقع الطيش في صدور الصّعاد
أشمت الخُلف بالشرّة عداها	وشفى ربّ فارس من إياد
وتولّى بني الزيّديّ بالبصرة	حتى تمزّقوا في السبلاد
وملوكا كأمس في القرب منا	وكتّسم وأختها في العباد

فقد ذكر انقسام الخوارج، ووقعة ملك الفرس وقبيلة إياد، وما أصاب بني الزيّديّ وطسماً وجديساً.

وقال في مدح ابن العميد:

مَنْ مُبْلِغ الأعراب أني بعدهم	لاقيت رِسطاليس والإسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كُتبه	متملكاً مبتدياً متحضراً

والشاعر لا تنجده ذاكرته بهذه الأمثلة ولاءً إلا بعد اطلاع واسع على التاريخ.

ولا ريب أنه أكمل درسه في اللغة واستفاد فنوناً أخرى من مطالعة الكتب، وقد روي أنه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل أن يهجع^(١).

وقد مرّ في الكلام على نشأته أنه كان مولعاً بملازم الوراقين يستفيد من دفاترهم.

وفي رواية أبي نصر الجبلي عن مقتل أبي الطيب أنه كان يحمل كتبه معه في أسفاره ويحرص عليها وكان قد أحكمها قراءة وتصحيحاً^(١).

وقد أعرب هو عن شغفه بالقراءة، وأنسه بالكتب في قوله:
أعزّ مكان في الدُّنى سِرْجُ سابح وخير جليس في الزمان كتاب